وهذه الخلخلة التي تتعرض لأنظمة الدلالة وطبقيات المعنى لا تفضي إلى نصر مؤزر، ولكنها تحدث صدعا في الذات تحول بينها وبين التكيف مع الوضع الطارىء، وتتعرض المرأة حينئذ لحكم قاس تمارسه الثقافة ضدها. وعلى الرغم من التصور الطبي المسلم به من أن الهستيريا ليست سوى رد فعل على ضواغط الظروف إلا أن جنس المرأة وصورتها ترتبطان في الذهن الثقافي بصورة وبتهمة الهستيريا. وفي حالة المرأة (يجتمع التصور العيادي ـ الطبي ـ عن الأنثى كحالة هستيرية، مع النموذج الثقافي الشائع عن جنس النساء ـ كما تطرحه مسرحيات إبسن مثلا ـ مما يحدد ويعزل المرأة التي تعجز عن التكيف).[14]

وتأتي اللغة لتكون أداة لهذه الهستيريا ومادة للجنون. وحسب تعبير فوكو فإن (اللغة هي البنية الأولى والأخيرة للجنون، وهي الشكل التكويني له. وعلى اللغة تتأسس كل المدارات التي بها يفصح الجنون عن طبيعته).[15]

اللغة ـ إذن ـ مادة كيمائية جاهزة للجنون. وبذا فإن العلاقة ما بين الكتابة والاكتئاب هي طبيعة في الفعل الإبداعي، وهي مصيدة قدرية تتربص بالمرأة التي خرجت للتو إلى النهار الساطع.

2 - 3 هناك حكاية قديمة تروي حادثة معبرة عن علاقة المرأة مع الألم، وهي تحكي عن امرأة عجوز كانت تجلس وحيدة أمام المدفأة، ودخل عليها ضيف راحت تحييه وترحب به. وكان (الموت) هو اسم هذا الضيف. لم تكن العجوز خائفة من ضيفها فهي تعتبره رمزاً للحياة

(14) السابق 171.

(15) انظر: M. Foucault: Madness and Civilization, Trans. by R. Howard Random Housse, 1965.